الفصل الأول

القرآن واللغة

قبل أن نتحدث عن أثر القرآن الكريم فى اللغة ، أحب أن أشير فى إيجاز الى مميزات اللغة العربية التى كانت وعاء للقرآن الكريم .

- فمن مميزات اللغة العربية ما يلى :

١ - سعة المفردات حتى كادت لا تحصى .

٢ - الإعراب، وهو الذى يفرق بين المعانى، ولولا الإعراب ما ميز فاعل من مفعول، ولا مضاف من منعوت

٣ - الفرق بالحركات بين المعانى، فالآلة الرَّمى مرمى بكسر الميم ، ولمكان الرمى مرْمىَ بفتح الميم .

٤ الفرق بحرف بين معنيين ، يقال أقسط الوالى إذا عدل ، وقسط الوالى إذا جار

٥ الفرق بين ضدين بسكون أو حركة فى مثل اللُّعْنة بالضمّ ، وهو الذى يلعنه الناس واللُّعنة وهو الذى يلعنهم كثيرًا

٦ تناسب الألفاظ والمعانى :

يقال : صرَ الجُنْدبُ لأن فى صوته استطالة ، فضعّفوا الراء ، ويقولون صرصر البازى ، لأن فى صوته تقطُّعًا

٧ دلالة بعض الحروف على المعانى ، فالحاء إذا وقعت فى اخر الكلمة دلت على الظهور والامتداد والتفريق مثل باح بالسر ، وأباح الشىء وساح الماء إذا تفرق على وجه الأرض

وصاح الرجل إذا مد صوته ، وفاح الطيب ، وسرح الشعر

والشين فى أول الكلمة تدل على التفريق شتت شملهم ، شطر الشىء

وأحياناً يدلّ الشين على الظهور مثل : شاع الخبر ، شفّ الثوب الخ [١] .

هذه الميزات أشارت إليها أمهات الكتب اللغوية كالخصائص لابن جنى وغيره ، ولهذا استطاعت اللغة العربية أن تكون جهاز استقبال لكلام الله تعالى بما تشتمل عليه من مميزات وخصائص .

وحينما نزل القرآن الكريم أمدّها بزاد من المعانى لا ينفد ، وحوّل القرآن الكريم اللغة كما يقول أديب العربية مصطفى صادق الرافعى - إلى ألفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذا هى لانت فأنفاس الحياة الآخرة .

ومتى وعدت من كرم الله جعلت الثغور تضحك فى وجوه الغيوب، وأن أوعدت بعذاب الله جعلت الألسنة ترعد من حمىً القلوب .

وحوّلها إلى معان هى عذوبة ترويك من ماء البيان ، ورقّة تستروح بها نسيم الجِنان، ونور تبصر به فى مرآة الإيمان وَجْهَ الأمان » [٢] .

وإذا كان للقرآن الكريم هذا الأثر البالغ فى ألفاظ اللغة ومعانيها فما العوامل التى أدّت إلى هذا التطور فى بناء اللغة العربية؟ وذلك ما سنتناوله بالبحث فى النقطة التالية:

- عوامل تطوّر اللغة العربية فى ظلال القرآن الكريم :

من أهم هذه العوامل ما يلى :

١ - نزول معظم القرآن الكريم باللهجة القرشية جعل هذه اللهجة تفرض سلطانها على جميع اللّهجات العربيّة الأخري ، فقد توارت هذه اللهجات لتدين بالولاء والانقياد إلى اللغة الأدبية النموذجية المتمثلة فى لهجة قريش التى نزل معظم القرآن الكريم بها.

٢ - عمل القرآن الكريم منذ نزوله على تهذيب اللغة العربية ، وبهذا التهذيب تطورت إلى الوصول إلى القمة فى الأغراض ، والمعانى والأساليب والألفاظ .

---

(١) انظر فى ذلك : كتب اللغة والمعاجم .

(٢) إعجاز القرآن / ٢٠ .

وقد تناول أستاذنا الدكتور على عبد الواحد وافى فى كتابه (فقه اللّغة) هذا التطور فى الأغراض والأساليب والألفاظ فقال:

« أما الأغراض فقد اتسعت أيّما اتّساع بفضل القرآن ، وانتشار الإسلام ....

وقد فتح القرآن الكريم أبواباً كثيرة من فنون القول ، فعولجت فيها أمور لم تكن العربية لتُعْنى بعلاجها من قبل ، وذلك كمسائل القوانين والتشريع ، والقصص والتاريخ، والعقائد الدينيّة ، والجَدل فيما وراء الطبيعة، والإصلاح الاجتماعى، والنظم السياسية ، وشئون الأسرة ، وأصول القضاء والمعاملات ، ودراسة مظاهر الفلك والطبيعة والحيوانات ، وهلم جرا » .

وأما التطور من ناحية المعانى والأَخْيلة والأساليب فقد بينها أستاذنا بقوله : « وقد ينجم عن اتساعها وارتقائها فى ناحية الأغراض اتساع وارتقاء فى ناحية المعانى والأخيلة والأساليب ، فقد قويت على تجلية المعانى الدقيقة التى جلبتها الفنون السابق ذكرها ، واستخدمت فيها الحجج العقلية ، والبراهين الفلسفية ، ودخلت فيها عناصر جديدة للخيال والتشبيه ، وتهذيب أساليبها ، وتشكلت فى صورة الأساليب العلمية .

وبصدد المفردات يقول أستاذنا : « وأما المفردات ودلالتها فكان الأثر فيها واضحاً كل الوضوح فقد تجرد كثير من الألفاظ العربية من معانيها القديمة ، وأصبحت تدل على معان خاصة تتصل بالعبادات والشعائر أو شئون السياسة والإدارة والحرب، أو مصطلحات العلوم والفنون، ومن ذلك ألفاظ الصلاة والصوم، والزكاة ، والحج ، والخليفة والإمام ، وأمير المؤمنين ، والوالى ، والقاضى، والكاتب ، والشرطة، والوظيفة والقطائع [١] والجريدة [٢] ، والصائفة[٣]، والشاتية ، والمرتزقة، والمتطوعة، والشحنة [٤]، والثغور [٥] ، والعمارة[٦]

---

(١) القطائع : هى ما يمنحه السلطان من الأرض لاستغلاله والإنتفاع به .

(٢) الجريدة : هى الجيش المجرّد من الرّجالة

(٣) الصّائفة : هى الكتيبة التى تغزو صيفاً ، والشاتية : الكتيبة التى تغزو شتاءً .

(٤) الشّحنة : اسم لمن يقيم فى الثغور من الجند

(٥) الثّغور : الأماكن التى يخاف دخول العدو منها . (٦) العمارة : السفن الحربية

ودار الصنعة [١] ، وديوان الجند ، وديوان الرسائل ، وديوان الخاتم ، والسرير ، والسكة[٢] والطراز [٣] والمقصورة . والحد والتعذير ، والشبهة والقياس ، والتعريف والقضية ، والسالبة والموجبة ، والمقدّمة والنتيجة ، والمثلث والمربع والدائرة ، والكون والحدوث، والقدم والوجود ، والعرض والجوهر ، وما إلى ذلك من آلاف المفردات التى تستخدم فى مختلف الفنون » [٤] .

ويضيف أستاذنا الدكتور شوقى ضيف فى كتابه تاريخ الأدب العربى: « أن القرآن هذب اللغة العربية من الحوشىّ ، ومن اللفظ الغريب فأقامها بهذا الأسلوب البالغ الروعة الذى ليس له سابقة ، ولا لاحقة فى العربية ، وهو الذى أقام عمود الأدب العربى منذ ظهوره ، فعلى هديه أخذ الكُتّاب، والخطباء والشعراء يصوغون أثارهم الأدبية مهتدين بديباجته الكريمة وحسن مخارج الحروف فيه ، ودقة الكلمات فى مواضعها من العبارات بحيث تحيط بمعناها ، وحيث تجلى عن مغزاها مع الرصانة والجزالة والحلاوة»[٥].

٣ - ومن العوامل المهمة فى تطور اللغة العربية نشأة قواعدها أو بعبارة أخرى نشأة النحو العربى .

فمن أجل الحفاظ على القرآن الكريم فى أساليبه وألفاظه ، فى تعبيراته وتراكيبه نشأ النحو العربى ، وتطور هذا التطور الكبير فى بناء اللغة العربية ، والقرآن الكريم فى هذا البناء العظيم يُطِلّ بوجهه الكريم فى كل مسألة من مسائلة وفى كل قضيّة من قضاياه.

ففى العصر الإسلامى الأول قامت حركة علْمية لصيانة القرآن الكريم من العامية المستبدَة، والعجمى الوافدة تتمثّل فى هذا العمل العظيم الذى قام به أبو الأسود وهو

---

(١) دار الصنعة : الموضوع الذى تصنع فيه السفن على مقربة من شاطىء البحر .

(٢) السكة : هى فى الأصل الطابع الذى ترسم به الدراهم والدنانير ، ثم صارت تطلق على نفس الدراهم والدنانير .

(٣) الطراز : هو سمة خاصة ترسم بها الثياب التى تحاك للخليفة ليلبسها أو يُنعم بها على السواء

(٤) انظر فقه اللغة وهامشه ١١٤ - ١١٦ .

(٥) تاريخ الأدب العربى للدكتور شوقى ضيف جزء ٢/ ٣٣ ـ ٣٤ بتصرف (العصر الإسلامى).

تنقيط المصحف تنقيط إعراب ، فقد طلب من (زياد) أن يبعث اليه بثلاثين رجلاً فأحضرهم زياد ، فاختار منهم أبو الأسود عشرة ، ثم لم يزل يختارهم حتى اختار منهم رجلاً من عبد القيس ، فقال له : خذ المصحف وصَبْغًا يخالف المداد ، فإذا فتحت شفتيَ فانقط واحدة فوق الحرْف ، وإذا ضممتهما فاجعل النقطة إلَى جانب الحرف، وإذا كسرتهما فاجعل النقطة فى أسفله ، فإن أتبعت شيئًا من هذه الحركات غُنّة فانقط نقطتين، فابتدأ بالمصحف حتى أتى على آخره ثم وضع المختصر المنسوب إليه بعد ذلك»[1].

وفى ضوء هذا النص نستطيع أن نقول : إن أبا الأسود من أجل صيانة القرآن الكريم قام بعملين خطيرين : أحدهما : ضبط المصحف ضبطًا إعرابيًا حتى لا تنحرف الألسنة عن النهج الصحيح أثناء قراءته ، وثانيهما : وضع الجذور الأولى لنشأة النحو العربى ، وقد انبثقت هذه الجذور وآتت أكلها على يد سيبويه بكتابه العملاق الذى أعجز من قبله، وعزّ على من بعده .

وقد اشتغلت من العراق الثلاث : البصرة ، والكوفة ، وبغداد بهذا الكتاب ، فمن معينه شربوا ، ومن علمه اقتبسوا ، ومن قضاياه تعلموا .

ولم يكن الكتاب وقفاً على هذه المدن الثلاث ، بل تجاوزها إلى غيرها حيث سارت به الركبان إلى كثير من أقاليم العالم الإسلامى .

---

(١) نزهة الألباء ١٢